الدكتور خالدي محمد

مقياس الفن العربي الإسلامي المحاضرة السابعة ماستر1 فنون تشكيلية

محاضرة في الزخرفة الإسلامية:

يعتبر فن الزخرفة فن قديم قدم الإنسان. وقد أعطى الفنان المسلم هذا اللون من الفن كينونة. فحور الأشكال وجردها لإحداث الحركة التي تعطي طابع الاستمرارية وتوحي بلا نهائية الأشكال المتكررة لتحقيق الانسيابية.

إن وقع الدين الإسلامي على الفنان المسلم كان كبيرا. فسجلنا ابتعاده عن كل ما نهي عنه كفني النحت والتصوير. فاتجه الفنان المسلم نحو الزخرفة. حيث أنشأ زخارف قائمة بذاتها وزخارف تحتويها الأشكال.

والزخرفة الإسلامية عبارة عن وحدات هندسية، وحدات رياضية يراد بها التفكير الرياضي للوصول إلى حقيقة لا تتعلق بمكان معين ولا زمان معين. فحقيقة المثلث أو المربع أو الدائرة تظل حقيقة عقلية في تجردها وانطلاقها.

وقد أخذ الفنان المسلم من الطبيعة من شجيراتها واوراقها وأزهارها وحيواناتها بعد تحويرها لتعطي الحركة الداخلية في تداخل الأشكال الهندسية، فتدرك العين تلك الحركة من خلال الخطوط

المتداخلة، وتلك الموسيقى الصادرة عن الأشياء تعبر عنها الحركة الزمانية التي تمثل الديمومة والاستمرارية في حركاتها اللانهائية.

وليس الفن الإبداعي براعة في تصوير المناظر بالمحاكاة القائمة على الدقة والقادرة على ايجاد الصلة بين العين والأشياء فقط، بل الإبداع الفني الذي يصل حد الروعة الجمالية. فليس الفن في نقل ما في الطبيعة فقط بل البحث عن طبيعة الأشياء.

وقد تميزت الزخرفة الإسلامية بجوانب تكمن في العلاقة القائمة بين الوحدات الزخرفية المتكررة والمتنوعة في تكاملها الهندسي واتساقها الفني. فالخطوط الهندسية والنظرة الرياضية لعالم الأشياء هو تجريد ذهني للجزئي ليصبح كلياً. ولهذا أمكن للوحدات الهندسية المتناهية من تكوين أشكال لا نهائية. وبهذا يلتقي فن الأرابسك (Arabesque) مع الفن التجريدي في مجال الانطلاق للتعبير عن المطلق.

ج_ العمارة الإسلامية: تأثرت العمارة الإسلامية بالحضارات التي احتكت بها والبلاد التي فتحتها فتأثرت بالأساليب البيزنطية والهيلينية والساسانية والإيرانية. بالإضافة الى الرصيد الحضاري للحضارة العربية في الجزيرة العربية. ورغم هذه التأثيرات نلاحظ الوحدة في الفن الإسلامي على الرغم من تعدد المراكز وبعد المواقع وذلك راجع لوحدة المنبع والأساس الفكري للحضارة الإسلامية.

فقد تعامل المسلمون بذكاء حضاري مع الثقافات الجديدة إذ أبقت عليها وأضافت إليها، ولم تحاول طمس تلك الثقافات بل سمت بها ووجهتها الوجهة الصحيحة من خلال أرضية قوية تتجه إلى هدف واحد.

استخدم المهندس المسلم الأعمدة المتنوعة وأدخل الفسيفساء والزخارف النباتية والهندسية وحورها، وذلك لانعدام الصور والتماثيل في العمارة الإسلامية خاصة في المساجد. واهتم بالتصميم المعماري.

تعكس العمارة المحتوى الحضاري لأي تكتل بشري، فهي قوة حضارية وكتاب مفتوح تسجل فيه الشعوب تاريخها.

إن العمارة فن، والفن أصدق أنباء التاريخ، لأنه الكاشف عن حقائق التاريخ. والعمارة إبداع والإبداع خاصية إنسانية، اختص الله بها الإنسان دون سائر الكائنات. فبيوت العنكبوت والنمل وخلايا النحل صادرة عن غريزة غير متطورة من خلال ذاكرة لحظية. وهكذا ستظل تلك البيوت والخلايا كما كانت عليها خارجة عن دورة الزمن. إلا أن الإنسان له عقل إبداعي متطور من خلال ذاكرة منسابة لإبداع يسير مع الزمان.

إن العمارة جمال والمعماري يحاول تجميل الفراغين الداخلي والخارجي ليصلح للحياة الحضارية، إذن فهي فن وإبداع وجمال. وبها بنى الإنسان حضارته بفضل ما استحدثه من عمران من خلال عقله الإبداعي.

وقد سجلت العمارة الإسلامية، مسيرتها الحضارية من خلال طرزها المختلفة. إذ نجد الوحدة الحضارية التي امتدت من أقصى بلاد المغرب العربي إلى أقصى بلاد الهند من خليج البنغال إلى جزيرة ايبريا.

ان مئذنة جامع (الكتبية) بمراكش ومئذنة جامع (قطب زادة بدلهي) تبدوان أمام المتتبع كبروج للحدود الإسلامية. وإن كانت هذه الحدود قد امتدت أبعد من ذلك. وحين نعلم أن هاتين المنارتين قد شيدتا في زمن واحد فبإمكاننا أن نعتبرهما بمثابة رمزين جميلين لوحدة العالم الإسلامي.

والفنان المسلم لا يفرق بين العمائر الشاهقة والتحف الصغيرة، حيث يستوي عنده القصر المنيف والكوخ الحقير وآنية الذهب والطين. ولم يفرق بين تحفة غني وسلعة فقير. بل هدفه هو تجميل الدنيا في شتى زواياها ومرافقها لتعطي جمالاً ذاتياً يشيع في النفس الغبطة وفي القلب الرضى، ويشهد لمبدعه بحس جمالي عميق، وللمتذوق بحس تذوقي نقدي، فيتحول المتلقي السلبي إلى متذوق إيجابي يشارك في العملية الإبداعية خدمة للإنسان.